« توبال قايين » أو :

معجزة الحـــديد

للشاعر الإنجليزي تشارلس ماكاى

للأستاذ محمود عزت عرفة

[وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس]
سورة الحديد : الآية ٢٥

[وصلة أيضاً ولدت توبال قايين الضارب كل آلة من نحاس وحديد] سفر التكوين ٤ : ٢٢

تقدمة

كانت قصص الكتاب المقدس — وما تزال — مصدر وحى عميق لكتّاب الغرب وشعرائه ؛ فهى قد تركت بسهولة تعبيرها وبلاغة حكمتها ودقة تصويرها ، أثراً بالغاً وسمة واضحة الظهور فى تفكير القوم وفى أسلوبهم ؛ كما ترك القرآن الكريم أثره البالغ الخالد فى مختلف علوم اللغة العربية وآدابها ...

وهذه حقائق لا يتسع المقام هنا لشرحها . على أن فى قصائد : مَهْلك جند سَنْحاريب ، ورؤيا الملك بَيْلْشاصّر ، ومرثية داود لابنه أبْشالوم[1] وغيرها وغيرها من نفائس الأدب الإنجليزى ، ما يعتبر دليلاً واضحاً على صحة ما أشرنا إليه آنفاً ... والقصيدة التى نترجمها اليوم مما يدخل فى هذا الباب . وهى من نظم الشاعر الإنجليزى تشارلز ماكاى Charles Mackay الذى عاش بين عامى ١٨١٤ ، ١٨٨٩م ؛ وقد اشتهر بمقطوعاته الغنائية الرائعة ، كما أنه ساهم فى تحرير كثير من الصحف الصادرة على عهده ، فى انجلترا واسكتلندا . وقد ورد فى (معجم السِّيَر القومى : D. N. B.) البريطانى أن هذه القصيدة نشرت لأول مرة فى صحيفة « لندن المصورة » عام ١٨٥١م . ولكن المحقق الإنجليزى س . ب . هويلر يقول إنه لم يعثر عليها فى هذا المصدر ، وإنها نشرت لأول مرة عام ١٨٥٦م ضمن ديوان للشاعر عنوانه : أغانى وأناشيد شعرية .

(١) القصيدتان الأولى والثانية للشاعر الإنجليزى لورد بيرون (١٧٨٨ — ١٨٢٤م) والثالثة من نظم الشاعر الأميركى ن . ب . ويليس (١٨٠٦ — ١٨٦٧م) . ويجد القارئ قصة سنحاريب ملك آشور فى سفر الملوك الثانى ، وولاية بيلشاصر وما حدث فيها فى سفر دانيال ، أما حديث داود وابنه أبشالوم فى سفر صموئيل الثانى ؛ وكلها من العهد القديم

ترجمة القصيدة

عاش توبال قايين[1] فى بدء الحياة والكون طفل يحبو ؛ وكان فيناً صنّاعاً ذا أيدٍ وقوة ، لا ينفك لمطرقته دوىّ ولأتُونه لهيب ولظى ... كان يرفع مطرقته بساعده القوى المفتول ويهوى بها على الحديد الأحمر الوهاج ، فيتراءى من حوله الشرر كأنه شآبيب المطر الأرجوانى . وما يزال حتى يستوى الحديد أمامه سيفاً قاطعاً أو سناناً لامعاً ، وإذ ذاك يصيح من قلب جذلان :

ألا بورك فى هـذه من صنعة بورك فى تلك الظُّبا وهاتيك الشُّبا ! بورك لمن هزّ مشرفياً أو اعتقل رديناً فبهذين تمتلك النواصى ، وتُستدْنَى الآمال القواصى !

وكانت الرجال ما تنفك تهوى من كل فج إلى توبال قايين وهو على عمله عاكف يلتمس كلٌّ لنفسه سيفاً جُرازاً أو نصلاً قاطعاً ، ليحقق فى الحياة مأرباً أو يحتاز رغبة . فكان يمدُّهم من السلاح بأنفذه ومن العُدة بأقواها ، حتى ليهتفون باسمه فى نشوة من السرور ، ويغمرونه بعطاياهم من نفائس النضار وكرائم الجوهر وهم يقولون : ألا بورك فيك يا توبال قايين ؛ يا من تسبغ علينا من القوة لَبُوساً ، ومن البأس سرابيل ودروعاً بورك فى القين وبورك فى النار ! بورك فى الحديد ذى البأس الشديد !

على أن خاطراً فجائياً احتل موطنه — فى إحدى الليالى — من قلب توبال قايين ، فجاشت نفسه بالألم المض ، وامتلأ صدره من الكمد الموجع والهم المقعد المقيم على ما قدم من الشر وأسلف من سوء الصنيع !

رأى الناس قد أذكوا فيما بينهم نار حرب عوان ، يتدافع من ثورات الغضب ونفثات الحقد ؛ وخضبوا وجه الأرض بمسفوح الدم ، فى لحظات من جنونهم ونشوات نفوسهم العوارم ، فصاح من قلب مفجّع منكوء :

وا أسفاه على ما قدمت يداى ! وتعساً لتلك المهارة التى

(١) توبال بن لامك (من زوجته صلة) بن متوشائيل بن محويائيل ابن عيراد بن جيوك بن قايين بن آدم — أنظر الاصحاح الرابع من سفر التكوين . وقايين هو المسمى عند العرب بقابيل الذى طوعت له نفسه قتل أخيه هابيل فقتله . وقد وردت قصة الأخوين فى أوائل سورة المائدة